ولن نتوقف طويلاً أمام هذه المقدمة، لنكتفي بالقول ان الاستشراف لا يتحقق بمجرد الادعاء، وانما تعبر عنه رؤية واعية ومتقدمة لمجمل علاقات الواقع ومعطياته، تستطيع أن تجد شكل تعبيرها الفني المتقدم. وعندئذ، ينتزع مثل هذا الفن بجدارة وسام زرقاء اليمامة.

الا أن «مدام حرب» تأتي لتضيف تراكماً جديداً إلى كل ما سبقها من أعمال للكاتب، وتستعيد ذات الأوهام وشكل صياغتها (الفنية) التي يحركها هاجس البحث عن المعادل «الرمزي». لكنها تجيء بوهم آخر جديد هو وهم التنبؤ والاستشراف.

تبدأ الرواية بتلمس الانساني العريض، من أزمة بطلها الوجودية، الباحث عن الدفء والحنان والتواصل الانساني المفقود، فيرتجيه في امرأة التقاها مصادفة... «لاول مرة أقدم نفسي لشخص لا أعرفه، عصمت، هذا هو اسمي، ربما قلت يعني مجنوناً» (ص١٦).

هكذا يمتد النص في البداية، محافظاً على صدقه الانساني العريض، رغم الانكسارات الايديولوجية التي اقتحمت السطور فكسرت تلقائية النص... «وحقد على أبيه وامه وعمه النائب وعمه الحاكم وكل الاغنياء، ولم يعرف كيف ينتقم منهم» (ص٣٢). ثم اتخذ قراره... «لا لبطولة الحزب، ولا لسيارة الحزب، ولا لزوجة الحزب الجميلة! وليقولوا انني لا أتمتع بوعي...» (ص٥٥).

لكن الانكسار الأساسي في الرواية، يتمثل في نقطة الانحراف المفصلية التي قذفت بسياقها من الانساني العريض إلى الوهم العريض، انطلاقاً من ادعاء الحرص على «الخصوصية الفلسطينية» التي أثبت الكاتب من قبل - وحتى الآن - عجزه عن فهمها وتمثلها وصياغتها فنياً.

يبدأ الانكسار الأساسي والفني للرواية، حين يُنفى «عصمت» بطل الرواية، إلى قرية حدودية - مع اسرائيل - ... فـ«غدا ذهابه إلى الحدود التصاقاً عدا عن كونه تحدياً (...) وتمنى من كل قلبه ان يسافر، الآن لو أمكنه ذلك، أن يسافر إلى خط النار» (ص٧٢). ثم نفاجأ بالقرية الحدودية التي أوصلنا إليها الكاتب بعد رحلة مرهقة للقطار! تلك الرحلة التي تفرض علينا أن نطرح أسئلة ما قبل الوصول الساذجة: أين هي تلك القرية العربية المتاخمة للحدود الاسرائيلية التي يتعب القطار في مسيرة الأيام والليالي قبل الوصول إليها، وأين موقعها الجغرافي على الخرائط أولاً، واين موقعها على خريطة الواقع ثانياً؟

وتأتينا اجابة الرواية على السؤال مفجعة. فقطار الوهم الذي يسير على سكة الوهم يقودنا إلى قرية الوهم... وهي واحدة لا تختلف عن القرى المتناثرة في أصقاع العالم الروائي الغريب والمترامي الأطراف لأفنان القاسم.

كل ما يمكن أن يخطر ببالك - بشأن هذه القرية - فانها تبقى خلافاً لذلك. ففيها سادة، والفلاحون هم عمال أرض يسامون أقصى أشكال القمع الطبقي!... «والسوط